محكم

جدل الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة للكتاب المقدس

نعيمة إدريس
باحثة جزائرية

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

تمهيـــد:

تحوّل الدّين في أوربا الحديثة إلى موضوع بحث مستقل لتخصصات علمية عديدة، بعد تطورات تاريخية وعلمية وفلسفية عديدة، هذا ما مكّن الدراسات الدينية أن تعرف تقدماً نوعياً، بعيداً عن الطروحات الماضية التي غلبت عليها السذاجة والخرافة والعاطفة في وصف الدّين وتحليل مضامينه، حيث ظهرت تخصصات تدرس الدّين من كل النواحي: أصل الدين بين التوحيد والتعدد والطقوس والمشترك والمختلف فيه بين الأديان السماوية من نبوة ومعجزات وشرائع. هذه الدراسات تستند إلى خلفيات ورؤى ومناهج ومدارس مختلفة، حيث نجد الدارس المؤمن بدينه، كما نجد الذي يرفض كل الموروث، ويؤمن بإله كما يحب هو أن يؤمن به ويراه، كذلك نجد الملحد الرافض للدّين جملة وتفصيلاً أو من يعتبر الدّين ضرورة اجتماعية أخلاقية، رافقت كل المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء.

وبعد هذا التحول، **تأسس** ما يعرف بالنقد الديني في الغرب المسيحي في العصر الحديث بعد التوجه لدراسة الأديان دراسة علمية، حيث انطلقت هذه الدراسات النقدية على يد سان سيمون وجان أوستريك وسبينوزا، كمحاولات رائدة تبعتها محاولات أخرى أكثر جرأة وعمقا، والتي انتهت إلى نتيجة أن الكتاب المقدس، والذي تعتمده الكنيسة منذ قرون، ويؤمن به الملايين من الأشخاص كتاب ليس بالمقدس، بل محرّف ومشوه، وقليل جدا مما يتضمنه يمكن أن يكون "كلمة الرب".

وقد صدرت ردود أفعال قوية ضد حركة النقد، وضد النتائج المتوصل إليها، والتي أدت إلى تشكيك خطير وهدام للعقيدة، وهذا الاستهجان طبيعي في حقيقة الأمر يجرح أي مؤمن، خاصة وأنه لم يتم التعود على مثل هذه الدراسات إلا حديثاً، إلا أن عملية النقد استمرت مؤكدة أن أسفار الكتاب عراها التغيير الكثير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة الناشرين الذين نقلوها.

وعلى العموم الاتجاه العقلاني العلماني عموماً، غامر ودرس النص المقدس، مسلطا عليه كل أدوات النقد المتاحة، وهو الاتجاه الذي فرض نفسه، بعد قرون المنع والتحريم، وفعلاً تمّكن نقد النص من كشف وإذاعة مسائل ذات أهمية تطرح نفسها، رغم الحساسيات الدينية التي أثارها.

هذا ما نحاول الوقوف عليه في هذا البحث، متتبعين إرهاصات نقد النص المقدس التي عرفتها أوروبا الحديثة والمعاصرة والجدل الذي أثارته بين المواقف المؤيدة والرافضة، وكذا أهم النتائج التي توصل إليها.

أولا: أهمية التوجه إلى دراسة الأديان دراسة علمية

منذ القرن السابع عشر، تحوّل الدّين في أوربا إلى موضوع بحث ودراسة بشكل مستقل لتخصصات علمية عديدة، بعد أن كان مدمجاً ضمن المعارف الأخرى، مما مكّن الدراسات الدينية أن تعرف تقدما نوعياً، من خلال مختلف التخصصات التي تهتم بالظاهرة الدينية أو بالإنسان الديني، والتوجه بها نحو رؤية علمية أكثر رصانة بعيداً عن الطروحات الماضية التي غلبت عليها السذاجة والخرافة والعاطفة في وصف الدّين وتحليل مضامينه أو أداء طقوسه وغير ذلك. هذا يبرز مدى أهمية هذا التوجه وأهمية النتائج التي توصل إليها أيضاً.

المواجهات التي عرفتها أوربا المسيحية مع الدّين ورجاله ومؤسساته، كانت من أهم العوامل في إفراز وضع ديني مترد، أصبح متعارفاً وصفه "بالأزمة" أزمة مسيحية، روحية ولاهوتية، تولدت عنها علوم جديدة في أوربا سلطت لدراسة المسيحية، وبقية الأديان، حيث ظهرت تخصصات تدرس الدّين من كل النواحي: أصل الدين التوحيد أو التعدد وأصل الطقوس والمشترك والمختلف فيه بين الأديان السماوية من نبوة ومعجزات وشرائع.

لكن المهم في هذه الدراسات الدينية أنها أخذت تبويبها الخاص، ومكانتها المستحقة، حيث صنفت ضمن منظومة العلوم الإنسانية والاجتماعية، رغم محاولة بعض الاتجاهات العلمية والمتطرفة إقصاءها وإخراجها من دائرة العلوم، بنزع الصفة العلمية عنها بمبررات عديدة أهمها أن الدّين لا يمكن أن يكون ضمن العلوم، بينما يصر اتجاه آخر أن الدّين أهم صفة لازمة للإنسان منذ وجوده، وبالتالي فإن دراسة الإنسان الديني تؤلف فرعاً مهما من فروع العلوم الإنسانية، في الوقت الذي تنادي فيه هذه العلوم بأنها تقدم عن الإنسان تفسيراً شاملاً، ولذا ينبغي دمج علم الأديان دمجاً طبيعيا في المقال الإنساني عن الإنسان.[1]

وعلى الرغم من رفض البعض لهذا التوجه، إلا أن الدراسات الدينية وتحديداً في البيئات الغربية شهدت وتشهد تقدماً ملحوظاً من خلال تخصصات عديدة: تاريخ الأديان، مقارنة الأديان، فلسفة الأديان، علم الأديان، حوار الأديان، نقد الأديان. واللافت ما يعرف بـ "نقد النص الديني" هذا النص الذي تعرّض ومازال يتعرض لإشكالية حساسة ومهمة جدا، تتصل مباشرة بأصالته؛ أي مدى مصداقية الوحي المنسوب إلى الله، وبصيغة أكثر مباشرة: هل الكتاب المقدس كلام الله فعلاً؟

نقد على عدة مستويات، منه ما يحقق في مختلف الزيادات والتشوهات التي حدثت من قبل الرواة والنساخ، وآخر يحاول إبراز العناصر الملحمية والأسطورية الموجودة في النص. أما النقد التاريخي فيحاول حسم أصالة

[1]- المستشرق جيب وعادل عوا، **علم الأديان وبنية الفكر الإسلامي**، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط1، 1977، ص 22 (الكلام لعادل عوا)

المصدر وإثبات صحة نسبته للمؤلف، (والذي يعني الله بالنسبة للوحي السماوي) وبالتالي يشمل هذا النقد كل أنواع النقد الممكنة.[2] هذا النقد يعد عملاً شاقاً ويتطلب حنكة وصبرا، كما يشترط تضافر جهود تخصصات عديدة من داخل وخارج العلوم الإنسانية، حيث نجد المختص في الجيولوجيا والأشعة والخبير في الآثار والخطوط والورق والحبر واللغة والمؤرخ والفيلسوف... كلها تخصصات تتعانق لكشف مدى أصالة الأثر التاريخي، والذي يعنينا في هذا المقام النص الديني المسيحي تحديداً.

وفي الحقيقة الأبحاث التي انطلقت في الغرب منذ أكثر من قرن حول الكتاب المقدس، بعد التقدم الذي عرفته العلوم الدينية، والتي أصبحت تخضع لمنهجية دقيقة صارمة، لا تسلم بالفرضيات والنتائج إلا بعد التحقق النظري والتطبيقي الذي تمكنه جملة الوسائل والتقنيات والخبرات المتوفرة وقفت على نتائج على مستوى من الأهمية والخطورة؛ فالقول بالتحريف لم يعد قولاً جزافياً أو صادرا عن تعصب ديني، إنما حقيقة فصل فيها النقد التاريخي بمناهجه المتطورة، وبإجماع العلماء وفرق البحث بعد تضافر الجهود بين تخصصات عديدة ساهمت في كشف الحقيقة.

هكذا تشكل النقد الديني في الغرب المسيحي في العصر الحديث بعد التوجه لدراسة الأديان دراسة علمية مع ريتشارد سيمون وسبينوزا كمحاولات رائدة تبعتها محاولات أخرى أكثر جرأة، والتي انتهت إلى نتيجة أن الكتاب المقدس، والذي تعتمده الكنيسة منذ قرون، ويؤمن به الملايين من الأشخاص كتاب محرّف ومشوه، وقليل جدا مما يتضمنه يمكن أن يكون "كلمة الله".

بعد هذه التطورات، أصبح النقد التاريخي للنص الديني تخصصاً علمياً، ورغم الصعوبات العلمية الكبيرة التي تعترض مشروع النقد الضخم، إلا أنه يتواصل ويحقق نتائج مشجعة، وإن كان بجهد كبير، وبطء شديد في النتائج، لكن الأهم هو التوصل إلى الحقيقة، وكما ذكر بوكاي "لقد تمكن نقد النص، وقد أصبح اختصاصاً علمياً من كشف وإذاعة مسائل ذات أهمية تطرح نفسها".[3]

هذا يعد تقدما حقيقيا على مستوى هذه الدراسات، حققته أوربا بعد أن عانت كثيراً من الحرمان في ممارسة حقها في مثل هذه القضايا الدينية من قراءة للكتاب المقدس وفهمه وتفسيره، بسبب الحصار الديني الذي مارسته السلطات الكنسية، بل إن الحضارة الأوربية، تعد النموذج الأفضل في الحالة الراهنة للعالم "الذي استطاع بذل

[2]- لتفصيل أكثر، ينظر تقديم حسن حنفي في ترجمته لرسالة في اللاهوت والسياسة، حيث يصنف أنواع النقد إلى نقد النصوص *Critique textuelle*، النقد الأدبي *Critique littéraire*، والنقد التاريخي، كما يذكر المحاولات النقدية الأولى، ص ص 18-19 الهامش 2

[3]- موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث**، ترجمة نخبة من الدعاة، دار الكندي لبنان، ط2، 1978، ص 10

أقصى درجة من الجهد للبحث عن الحقيقة بالطريقة الإنسانية، بعد رفض كل حقيقة قبلية معطاة سلفا، بعد خيبة الأمل التي أصابت الوعي الأوربي من حقائقه المعطاة سلفا".[4]

السلف الذي لم يراع الأمانة وفرّط فيها، وعندما اكتشف الأوربي هذا التفريط وأفاق من غفلته، أعاد البحث عن الحقيقة المتمثلة في "كلمة الله" الصادقة و"الوحي الحق"، لكن هذا البحث يتطلب "أولاً تطهير صورة الوحي التي خلقها الوعي الأوربي، ثم يتطلب بعد ذلك بيان أين توجد هذه الصورة".[5]

ثم إن التطور الحاصل في العلوم الدينية، قاد إلى الكثير من القناعات على رأسها التأكيد على البعد الديني في الإنسان، لقد بات من المقرر أن السلوك المتدين ارتبط بالإنسان منذ ظهوره؛ أي اتجاه الإنسان نحو الاعتقاد بالإله أو بقوة خارقة مسيرة للكون، اعتقاد قديم ظهر في كل الحضارات كما أثبته علم الاجتماع الديني، ورغم تعرض الدّين عبر تاريخه الذي هو تاريخ الإنسان، إلى هزات عنيفة وصلت إلى الحروب الشرسة، وإلى المعارضة والإقصاء والنفي، وقبل ذلك إلى المجادلات الداخلية من قبل المؤمنين أنفسهم، إلا أننا لا نعثر على فترة تاريخية انعدم فيها السلوك المتدين. إن من المؤكد أن الدّين لازم نشأة الحضارة، باعتباره خصلة تميز الفكر الإنساني، حتى أنه من الصعب أن نفترض وجود مجتمع غابر خالٍ من التدين، إلا إذا اعتبرناه متسما بالبلاهة والعجز.[6]

وفي عصرنا، رغم القول بأنه عصر المادة والعلوم التقنية، وأن الدّين تقهقر وتراجع، والميتافيزيقا انهارت مع بقية الخرافات، إلا أن الدّين لم يغب تماماً، بل مازال قيمة يطلبها أغلب الناس، حتى في المجتمعات العلمانية يلاحظ عودة إلى اهتمام الناس بالدّين من الإيمان الساذج إلى الإيمان الواعي "ثم إلى البحث في ظاهرة التدين بحثا اعتقاديا بادئ ذي بدء، ثم تطور هذا البحث بتطور العلوم الإنسانية وتمايزها، حتى ظهر في إطار هذه العلوم علم الأديان أو تاريخ الأديان المقارن"[7] وغيرها من التخصصات العديدة. ورغم الاختلاف الذي وصل حد الجدل بين الباحثين فيما يخص تسمية هذه العلوم، بين من يفضل "تاريخ الأديان" معترضاً على "علم الأديان" فليس هذا هو المهم، وإنما المهم دراسة الدّين دراسة علمية موضوعية للوصول إلى الحقيقة بعد أن كان مغموراً وممزوجا بالدراسات الفلسفية واللاهوتية والاجتماعية والنفسية، أصبح علماً مستقلا، والبحث يحاول الكشف عن جانب من هذا التطور من خلال تسليط الضوء على جدل الدراسات النقدية للكتاب المقدس.

---

[4]- حسن حنفي، **ظاهريات التأويل: محاولة في تفسير وجودي للعهد الجديد**، ج2، مكتبة النافذة، ط1، 2006، ص ص 34-35

[5]- المرجع نفسه، ص 35

[6]- عادل عوا، علم الأديان، ص 11

[7]- المرجع نفسه، ص 11

ثانيا: هدف النقد ومزاياه

إن حركة النقد بأنواعه التي سلّطت ومازالت على الكتاب المقدس، أثارت اعتراضاً من طرف الكثير من المؤمنين، باعتبارها حركة تهدف في النهاية إلى زعزعة الإيمان وهدم الأخلاق، بما أنها تشكك في مصداقية الكتاب والوحي ككل، وهذا الاعتراض صحيح من وجهة نظر، بما أنه فعلا يوجد من بين التيارات النقدية، نقد سلبي هدام، رفض الوحي جملة وتفصيلاً، واعتبر الكتاب المقدس كتاباً بشريا مثل أي مؤلف آخر، وأنه لا يتضمن الحقيقة الإلهية بأي معنى من المعاني، وهذا ما تردده المدرسة الأسطورية والاتجاهات الوضعية، وهنا يحق لنا أن نتساءل:

هل تعرض الكتاب المقدس للنقد، يعني نسفه كلية، خاصة وأن هذا النقد أكد وقوع التحريف بما يحمله من معاني التبديل والتغيير والزيادة والنقصان؟ هل النقد عملية تهدم الدّين وما يحمله من قيم ضرورية للإنسان والمجتمع؟

في الحقيقة، يمكن التعجل والإجابة بنعم، على أساس أن النقد عملية هدامة، لكن واقع الأمر غير ذلك، لأن النقد في النهاية هو حكم يميز الصحيح من الفاسد و"عمليا يساهم النقد في تبرير موقف واستبدال رأي بآخر، مع ما لذلك من تأثير (إيجابي أو سلبي) على الخطاب السائد أو المهيمن"[8]، لكن هذا التبرير، لا يتم جزافا أو عن هوى، فالنقد التاريخي المسلط على الكتاب المقدس يستند إلى مناهج وتقنيات دقيقة جدا تمّكن ليس من نسف الكتاب، ولكن من تمييز الصحيح من الكاذب في النصوص.

فلسفيا، العقل النقدي يطلق على الفكر الذي لا يأخذ بأي إقرار دون التساؤل أولا عن قيمة هذا الإقرار سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي) أو من حيث أصله (نقد خارجي)، ومن استعمالاته النقد التاريخي الذي ينقسم إلى نوعين:

نقد خارجي ينصب على الوثائق لتحديد مدى صحتها.

نقد داخلي يهتم بتحليل النصوص والوثائق ومقابلتها ببعضها البعض.[9]

[8]- إسماعيل العثماني، إدوارد سعيد بين النقد الديني والنقد العلماني، ترجمة فخري صالح، مقال بمجلة: فكر ونقد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، العدد 3، ديسمبر 1999، ص 129

[9]- لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول ***A-G***، منشورات عويدات، بيروت باريس، ط2، 2001، ص 238. حمدي زقزوق: الفلسفة الحديثة، ص 59-60-183

وإذا كان المقصود هنا بالوثيقة، الوثيقة التاريخية، فإن مصطلح النقد توسع استخدامه، لينصب على أية وثيقة كانت، تاريخية، أدبية، سياسية، ودينية أيضا، كما حدث في أوربا الحديثة.

هذا النقد عرف تطورات كبيرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، يمكن تصنيفه إلى نوعين، رغم تعدد مناهجه واختلاف مدارسه:

- نقد (بنّاء) يهدف إلى إبراز الزيف والتحريف الذي أدخل على النص المقدس لينتهي إلى إثبات العقائد التي تصمد أمام النقد؛ أي التي تبين أنها صحيحة، إن لم تكن في نصها، ففي مضمونها.

- نقد (سلبي) يهدف هو الآخر إلى إبراز الزيف والتحريف أيضا، ليثبت أن الكتاب ليس مقدسا جملة وتفصيلا، وأنه لا وجود للوحي أصلا ويضع في النهاية النص الديني مع أي نص إنساني، أدبي أو أسطوري، فهو من صنع خيال الإنسان وهلوسته، خاصة في فترات ضعفه، أو من صنع رجال الدّين والحكام للتسلط على الناس، وكما نلاحظ هو نقد هدام فعلا[*].

لكن لو سلّمنا بالنقد البناء أو الجانب الحسن منه كما عبر لالاند، ما الذي يمكن أن يقدمه هذا النقد للدّين والقيم الروحية؟

بالرغم مما تثيره عبارة "نقد النص المقدس" من استهجان في حس وعقل المؤمن بهذا النص على الأقل، إلا أن النقد التاريخي بمستوياته من نقد للمصادر (السند) ونقد النص (المتن) ونقد الرواة (الجرح والتعديل) يقدّم خدمات جليلة للنص المقدس ولحقيقة الإيمان، ثم إن أهم وظيفة للنقد التاريخي تحقيق الوعي التاريخي، بما أنه علم يميز بين الصحيح وغير الصحيح، وليس معنى قدحيا، يهدف إلى إثبات عدم صحة النصوص المقدسة بإطلاق حكم عليها، يسلبها صفة الوحي الإلهي. ويمكن إيجاز مزايا النقد التاريخي في النقاط التالية:

- الاقتراب من الحقيقة الموحاة بإثبات الصحة التاريخية للوثيقة.

- هذا النقد لا يذيب موضوعه "النص الديني"، بل يؤكد حقيقته عن طريق التطابق بين الرواية المنقولة وكلام المبلّغ.

[*] العقل النقدي في (الجانب الحسن) هو الذي لا يسلم بأي إقرار دون التساؤل أول الأمر عن قيمة هذا التقرير، سواء من حيث مضمونه (نقد داخلي) أم من حيث مصدره (نقد خارجي) على نحو أندر (في الجانب القبيح) هو الذي يكون أميل إلى إبراز العيوب منه إلى إبراز المحاسن، مما يشكل أزمة، موسوعة لالاند، ص 238

- كذلك لا يقسم النقد المعطى الديني (الوحي) إلى جزأين، الأول موضوعي تاريخي يحتفظ به، والثاني ذاتي خرافي يترك جانباً، بل على العكس يتم بحثه كمعطى مثالي، كما خرج من فم المبلّغ [10].

ثالثا: تأسيس الدراسة النقدية للكتاب المقدس

أ- النقد في القرن السابع عشر:

كل فروع المعرفة استفادت من أحداث النهضة، وتطورات القرن السابع عشر، ومنها دراسة الأديان التي عرفت نقلة نوعية، وكما سبق ذكره، ظهر نقد في صفوف بعض رجال الدّين واللاهوتيين، انصب على نقد سلوك[*] رجال الدّين الذي كان يتعارض وروح الدّين وقيمه، بل وتعاليم الوحي. لكن بعد ذلك، انتقل النقد إلى مستوى آخر، إلى النص الديني ذاته، حيث "بدأت الدراسة الناقدة للكتاب المقدس في هذا العصر، تجعل الناس أحراراً في الإعجاب به أدباً والتشكيك فيه علما"،[11] خاصة بعد الانتشار الواسع للكتاب المقدس باللغات المحلية إلى جانب اللاتينية، وانتشار تفاسير البروتستانت له منذ حركة الإصلاح.

بهذا الشكل بدأت الخطوات الأولى لتأسيس النقد التاريخي خاصة للكتاب المقدس، في الغرب المسيحي، على يد مجموعة من المفكرين والفلاسفة اللاهوتيين أيضا، حيث بدأ الوعي الأوربي الحديث يبحث وبجهد إنساني خالص عن الحقيقة المعطاة سلفا في الوحي، والتي رفضها عصر النهضة، الحقيقة التي يمكن أن يجدها في كتابه المقدس، لكن بعد أن يعرّضه لعملية نقد صارمة، كما يمكن ألا يعثر عليها داخله. وبما أن النقد التاريخي يسعى للتأكد من صحة الوثيقة، وصحة الرواية ومصداقية الراوي، فإنه في حالة الكتاب المقدس، يهدف إلى الإجابة عن سؤال جوهري طرحه الغرب المسيحي.

هل الكتاب المقدس كلام الله؟ هل يحمل حقيقة كلمة الرَّب؟ أم يمكن أن يكون منحولا ومؤلفا من قبل أشخاص مثلنا، وبالتالي يكون الكتاب الذي نعتقده إلهي المصدر، كتاب إنساني، كأي مؤلف نتداوله يخضع لما تخضع له مؤلفات البشر؟

---

[10]- حسن حنفي، **ظاهريات التأويل**، ص 84

[*] يحصي حسن حنفي الآيات الواردة في القرآن الكريم، المتعلقة بما أسماه: قضايا أنماط السلوك معلقا: «وتتفق كل النصوص الخاصة، بسلوك أهل الكتاب على التناقض بين العمل وأسس العمل في معطى الوحي الذي لم يحافظ على الصحة التاريخية، ولا على فهمه الصحيح من قبل، ويحلل الانحراف أمام نفسه، وأمام الله، وكان المقصود دائما اليهود وليس النصارى. وكانت تخبئه حقيقة الفعل ظاهرة منتشرة في إسرائيل، كانت تعلم أنها تتعدى الشريعة، ولكنها لا تعترف بذلك، لم تكن تصدق بحقيقة الوحي، بالرغم أنها تعلم أنه وحي». انظر متن وهامش: **ظاهريات التأويل**، ص 23 وما بعدها.

[11]- ول ديورانت، **قصة الحضارة، عصر لويس الرابع عشر**، مج 33-34، دار الجيل لبنان، جامعة الدول العربية تونس، ص 166

هذا السؤال الحساس الخطير، والذي جر عديد الأسئلة، تكفل به النقد التاريخي الذي سلط على الكتاب المقدس بعهديه، والذي قاد إلى نتائج تجمع على الطعن في أصالته.

وبالرغم من صدور ردود أفعال قوية ضد حركة النقد، إلا أن عملية النقد استمرت، والتي يعد سبينوزا رائدها الحقيقي، ويتبعه القسيس الفرنسي ريتشارد سيمون الذي توفي عام 1712، والذي ألف كتابا بعنوان: تاريخ نقدي للعهد القديم، والذي حاول أن يرد فيه على آراء سبينوزا، لكنه في النهاية سلم بالكثير من نقد سبينوزا، وبهذا المؤلف يعد ريتشارد سيمون من المؤسسين لعلم النقد التاريخي للعهد القديم، حيث توصل إلى أن الصورة التي وصلت بها الكتابات المقدسة إلينا هي الصورة التي قدمها عزرا والكتبة كما يرى أن الأنبياء الذين بواسطتهم كتبت هذه الأقوال بصورة أساسية، هم أنفسهم كتبة المملكة الرسميين الذين كان عملهم جمع قوائم المملكة، سواء التي كتبت بواسطتهم أم التي كتبت بواسطة غيرهم.[12]

من هنا سلّم ريتشارد سيمون، مثل سبينوزا أن أسفار العهد القديم، ليست تماماً من عمل المؤلفين الذين نسبت إليهم، وأنه لا يمكن أن يكون موسى كتب الأسفار الخمسة، وأن أسفار الكتاب عراها التغيير الكثير عن صورتها الأصلية بأقلام الكتبة الناشرين الذين نقلوها إلى الخلف، وتعد محاولة ريتشارد سيمون إلى جانب محاولة من المعالم في الدراسة الحديثة للكتاب المقدس، لدرجة أن حذّر ليبنتز من أن هذا الاتجاه في التحقيق والنقد سيدمر المسيحية.[13]

وعلى الرغم من الأصوات المناهضة الرافضة لنقد الكتاب المقدس، إلا أن عمل النقاد استمر.

ب- النقد في القرن الثامن عشر (عصر التنوير):

يوسم القرن الثامن عشر بعصر التنوير الذي شكّل تياراً شاملاً حرك كامل أوربا، بل وفي جميع اللغات الأوربية، عُرف أو وُصف القرن الثامن عشر باسم النور والتنوير، لقد شعر مثقفو التنوير، بأنهم جزء أو أهم جزء من حركة عظيمة تمثل التطلعات البشرية العليا، فهم مصلحون يؤمنون بأن قضيتهم يمكن خدمتها على نحو أفضل، عن طريق عاطفة جديدة للبرهان والنقد، والنقاش،[14] والتي يمكن اختزالها في كلمة العقلانية، بما أنها تحمل كل هذه المعاني، بل وأكثر. كذلك يغلب على عصر التنوير الطابع الفرنسي؛ فلغته الأساسية فرنسية، والتي كانت تُصدّر كل ما ينتج عندها من أفكار إلى باقي دول أوربا، التي سرعان ما يستقبل مثقفوها هذا الإنتاج ويترجمونه.

[12]- محمد حسن خليفة وأحمد محمود هويدي، **اتجاهات نقد العهد القديم**، دار الثقافة العربية، ط1، 2001، ص 92

[13]- ول ديورانت: **قصة الحضارة، عصر لويس الرابع عشر**، مج33-34، ص ص 180-181

[14]- ليود سبنسر وأندرزيجي كرور، **عصر التنوير**، ترجمة إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة مصر، ط1، 2005، ص 13

عصر التنوير لم يأت من هدوء، الثورات العديدة طبعته، كما حاولت هذه الثورات أن تضع مبادئ عصر التنوير موضع التطبيق العملي.[15]

أما بالنسبة لممثلي وقادة التنوير، فقد كانوا من فئة المثقفين والأدباء والمفكرين منهم الفلاسفة، لكن ليسوا كمحترفين أو أكاديميين، لكن حتماً من المفكرين الذين مارسوا الكتابة والصحافة والمناظرة والنقد بين بعضهم البعض، ومع الآخرين، جميعهم دعوا إلى روح العقل الجديد والتسامح لتحقيق التقدم الإنساني.

هذا التسامح أثمر اتحادا في الجهود بين المثقفين، قدم لأوربا وللعالم ككل إنجازاً كبيراً تمثل في الموسوعة الشهيرة، لكن لنا أن نتساءل كيف جاء التنوير، وكيف تمكّن من فرض نفسه كتيار عقلي واضح المعالم، دقيق الأهداف؟

إن حركة التنوير، كأية حركة، لم تأت من فراغ، ولم تولد لتوها، كما أنها لا تعبّر عن مذهب أو مدرسة فلسفية معينة، وبالتالي لا تعاني من تبعية ما، وإنما جاءت نتيجة سياق تاريخي أوربي معروف، سياق يتسم بالصراعات الدّينية الدموية غير الحاسمة – المؤلمة – التي شهدها القرنان السادس عشر والسابع عشر.[16]

إن هذا الصراع الدّيني، ورغم المآسي التي سببها والخسائر الفادحة التي أحدثها، إلا أنه قاد في النهاية إلى الكثير من التغيير والتقدم، والذي انصهر في النهاية في التنوير بمختلف التحولات التي أحدثها، والذي يعنينا:

1- أثر التنوير في النقد التاريخي للدِّين:

بعد أن كانت الكنيسة الكاثوليكية هي المسيطرة، وجدت طوائف متعددة، حتى في فرنسا التي ظلت فيها السيادة للكنيسة الكاثوليكية، إلا أنه وُجد أيضاً مئات الآلاف من البروتستانت، إلى جانب العديد ممن ينتمون إلى الطبيعيين أو الربوبيين، وكذلك الشكاك والملحدين، جميعهم كان يعبّر عن إيمانه أو عدم إيمانه، رغم تعرض بعضهم للأذى والخطر.

إن المؤسسة الدّينية المسيحية الكاثوليكية فقدت قوتها، وبالتالي تأثيرها مع تنامي تيار العقلانية، وانتشار الآراء الحرة التي تدعو إلى حرية الرأي والمعتقد وضرورة التسامح الدّيني، بل لقد وُجد من يقول أن الأديان

[15]- المرجع نفسه، ص 18

[16]- راسل، **حكمة الغرب**، ج2، ترجمة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة الكويت، 1973، ص 143

على اختلافها، بما في ذلك المسيحية، تحتوي على قدر من الحقيقة والصدق، وأن الأمر لا يقتصر على المسيحية وحدها،[17] وبداهة كان لتنامي البروتستانتية دوراً في تأكيد هذا المسعى.

إن هذه المسألة لم تعد تعالج من منطلق ديني فقط، القرن الثامن عشر حمل فلسفة تتجاوز التسامح الدّيني، تقر بأن "هناك حقيقة جديدة، أعمق من حقيقة المسيحية التقليدية، والتي لو تسامحنا معها، فإنها ستفضي في النهاية إلى الحلول محلها أو تعديلها تعديلا شاملا، وهذه الحقيقة لا تتكشف كاملة تامة للبشر، بل يتعين البحث عنها واستكشافها تدريجياً عن طريق التجربة والخطأ، وعن طريق البحث والاستقصاء وبذل الجهد الإنساني"[18]؛ أي إتاحة الفرصة لحقيقة أخرى، وبوسائل أخرى، أهمها العقل والتجربة. هذه الحقيقة قد تكون نسبية، بل هي كذلك، بدلا عن الحقيقة المسيحية، والتي ادعت أنها مطلقة، هذه النسبية مست كل المجالات، بما فيها الحقيقة الدّينية المتصلة بالوحي.

كانت هذه الجهود التنويرية، على مختلف مشاربها، وتنوع ألوانها، تتفق على ازدراء التراث الوسيطي، كل متخذ حجته؛ فقد عبّر المتصوفة عن إهمالهم للوحي النبوي، باتجاههم إلى المعرفة الذوقية، كما عبّر الفلاسفة عن إهمالهم للدين باتجاههم نحو العقل والعقلانية.[19]

فالعقلانية تعني الاتجاه إلى الطبيعة، لا إلى الكنيسة أو الوحي الذي تعتمده، لقد بات متداولاً أن الرجل المستنير هو "الذي يدرك... أن سنة الله مسطرة، لا في الكتب المقدسة، وإنما في كتاب الطبيعة الأكبر، وهو كتاب منشور للعالمين، هذا هو التنزيل الجديد".[20]

تعبيرات عديدة ضد الدّين التقليدي، وبالرغم من محاولات الدفاع من قبل المتدينين، ومن قبل رجال الكنيسة، إلا أن خطوط الدفاع كانت واضحة، محددة المعالم. لقد صرّح الأب مولينيه في رفضه لتطرف التنوير، متسائلاً ومجيباً في نفس الآن:

"نرجو فقط، أن تقولوا لنا: ماذا يعني فيلسوف التنوير؟ هكذا تساءل الأب مولينيه، ضرب من الحيوان المتوحش في المجتمع الذي لا يشعر بأي التزام نحو عاداته وأخلاقياته وخصائصه وسياسته، أو دينه، ويمكن للمرء أن يتوقع أي شيء من أناس على هذه الشاكلة".[21]

---

[17]- كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، مجلة عالم المعرفة، مطابع الرسالة، الكويت، 1982، ص 160

[18]- المرجع نفسه، ص 161

[19]- هاني يحي نصري، **دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة المعاصرة**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص 288

[20]- كارل بيكر، **المدينة الفاضلة**، ترجمة محمد شفيق غربال، المكتبة الأنجلو مصرية، ط2، 1958، ص 114

[21]- ليود سبنسر، **عصر التنوير**، ص 61

لكن فيلسوف التنوير لا يأبه بهذه الصرخة الصادرة عن أب، بل هو مستمر في سيره، في تحقيق قيمه، فهو يعرّف بنفسه، وبوضوح تام في موسوعته، فيلسوف التنوير "هو الشخص الذي يسحق الأحكام المبتسرة، والتراث، والموافقة الجماعية والسلطة، باختصار ما يستعبد العقول، وهو الذي يجرؤ على أن يفكر لنفسه، وأن يعود إلى الخلف ويبحث عن أكثر المبادئ العامة وضوحاً، ولا يسمح بشيء ماعدا شهادة عقله وتجاربه"[22]، من هذا التعريف يمكن القول فعلا، إن رجل التنوير أدار ظهره لتعاليم الدّين ورجاله.

هكذا ضعفت المسيحية، وتراجعت إلى الخلف، لكن هل هذا يجعلنا نستنتج أن القرن الثامن عشر أدار ظهره كلية للدّين؟

على الرغم من أن القرن الثامن عشر أدار فعلا ظهره للدين، وتحديداً للمسيحية بكل مؤسساتها، إلا أنه من الخطأ أو من المبالغة على الأقل، القول إن الأسئلة الدّينية واللاهوتية، قد غابت تماما، أو أصبحت على الهامش من حيث الأهمية. على العكس التساؤل حول الدّين، وحول الله، بقي متواصلاً، لكن بطرح جديد، بعيداً عن الطرح المسيحي الوسيطي، ومع هذا يمكن التأكيد أن معاداة الدّين من الصفات المميزة للتنوير[23] خاصة الدّين الكنسي الذي رأى التنويريون أنه يقوم على الخوارق، والتي باتت مصدر شك عند الأغلبية، وتحولت الأسئلة المهمة، لتنصب على الإنسان والمجتمع والتاريخ.

أنصار التنوير، رغم اهتمامهم بالإنسان، وإهمالهم للدّين ومعاداته، إلا أن هذا لم يكن سلوكاً موحدا ومتساوياً، هذا ما تكشفه الموسوعة؛ فهي "لم تكن عملاً معاديا للدّين بالمعنى الأوسع، فقد كان رأي ديدرو قريب الشبه بمذهب شمول الألوهية ***Panthéisme*** عند سبينوزا، كما أن فولتير الذي أسهم بدور كبير في ذلك العمل الضخم، قال إنه لو لم يكن يوجد إله لوجب علينا أن نبتدعه"،[24] رغم أنه يعادي المسيحية الرسمية بشكل كبير.

كما لاحظنا تميز القرن الثامن عشر بخصائص عديدة، من اهتمام بالعقل والإنسان والطبيعة، في محاولة منه لتحقيق مجتمع متقدم، كما عرف هذا القرن صراعاً مع المؤسسة الدينية والسياسية، عرف الإلحاد إلى جانب الإيمان، تنوعت ضروبه "حيث بدا كأنه جملة قرون" كما عبر راسل.

---

[22]- نقلاً عن **عصر التنوير**، ص 61

[23]- فرانكلين -ل- باور، **الفكر الأوربي الحديث**، ج2، القرن الثامن عشر، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص 20

[24]- راسل، **حكمة الغرب**، ج2، ص 143

إذا حللنا هذه الضروب والتحولات نجدها في جوهرها دينية، أو على الأصح ردود أفعال على الكنيسة والمسيحية، كيف ما كان شكلها؛ فالتراث الديني الثقيل بكل معاناته ومآسيه شكل في النهاية محفزا قوياً لتجاوزه كلية، وتقديم بديل أو بدائل عنه تكون في خدمة وصالح الإنسان، وقد أصاب مؤرخ الفكر الأوربي، عندما لخص أو اختزل التحولات التي حدثت في المجتمع الأوربي بردها إلى التحول الذي حصل ضد الدين الرسمي بقوله: "في عبارة عامة جدا، نقول إن التحول في موقف الإنسان الغربي من الكون وكل ما فيه، هو التحول من نعيم المسيحية الغيبي في السماء بعد الموت، إلى النعيم العقلاني الطبيعي على هذه الأرض الآن، أو على الأقل في القريب العاجل".[25]

وعلى الرغم من المبالغة في توقعات هذا النعيم، فإن التحول الحاصل، والمأمول فيه أيضاً، تحول أساسه التقدم بالإنسان نحو مستقبل أفضل، نحو سعادة تعيد الاعتبار للإنسان بعيداً عن الزهد المسيحي المزيف، المعارض للطبيعة الإنسانية. لكن هل يُفهم من هذا أن القرن الثامن عشر، قرن إلحاد فعلا، كما وصفه البعض؟

على الرغم من تحول الاهتمام نحو الإنسان والطبيعية، نجد أيضاً "قد استمر السؤال الخاص "بالله" أو "الدين" مثيراً للاهتمام...بل وفائق الأهمية، لا لأنه يساعد على تنوير الطبيعة، وإنما لأهميته في ذاته"،[26] بما أن الدّين يشكل أهمية خاصة حتى بالنسبة للملحد، فقد عرف القرن الثامن عشر جدلاً حول الدّين والله، بين مختلف الطوائف الفكرية والدينية التي كانت موجودة، المؤمنة والملحدة منها على حد سواء، حتى بدا العصر كله "عصر التنوير، ساحة قتال حول الإله "قتال يصعب الوقوف بدقة علمية على خلفياته التاريخية، ومنطلقاته الفكرية، لكن المتفق عليه أنه قتال أدى إلى "ضروب جذرية من الانشقاق، وإلى تبادل النقد المرير، وهنا كما هي الحال في أية مرحلة من مراحل التجربة الفلسفية الحديثة، أحدثت مشكلة الإله انقسامات عميقة فقط بين قادة الفكر".[27]

والملاحظ أن الطروحات الدينية عرفت رؤى جديدة؛ فالدّين ليس بالضرورة يرتبط بوحي ونبوة وطقوس، أو هو المسيحية نفسها، وإنما الدّين يجب أن يدرس دون تحديد لهويته، والالتفات إلى ضرورته من عدمها بالنسبة للطبيعة الإنسانية كلها.

وبالرغم من اهتمام بعض الفلاسفة والمفكرين بالدّين أمثال روسو، هيوم، كانط... إلا أن المسألة الدينية عرفت أزمة حقيقية خاصة في فرنسا التي تمكنت من القضاء على العقيدة الدينية بشكل كبير، "الكنيسة

---

[25]- كرين برينتون، **تشكيل العقل الحديث**، ص 177

[26]- فرانكلين باور، **الفكر الأوربي الحديث**،ج2، القرن الثامن عشر، ص 53

[27]- جيمس كولينز، **الله في الفلسفة الحديثة**، ترجمة فؤاد كامل، دار قباء، القاهرة، ط2، 1998، ص 185

الكاثوليكية في فرنسا أصابها مرض خطير،... والقصص التي تُروى في الحانات منذ العصور الوسطى، قد خلّفت حصيلة زاخرة من الشخصيات؛ فالرهبان الفاسقون، الماجنون، والراهبات الشهوانيات، والأساقفة العاجزون جنسياً، مصابون بأمراض جنسية، ورئيسات الأديرة يمارسن السحاق... وكان الكاهن هدفا سهلا للوشاية، وكثيراً ما ظهر في الأدب المكشوف الذي انتشر في عصر التنوير"؛[28] أي المرض أصاب واستفحل حتى في المؤسسة الدينية الرسمية. هذا الجدل الدائر وهذه الأزمة المعاشة، يمكن تحديد تجلياتها بحسب ردود الفعل التي كان يتلقاها الدين أو المسيحية والتي تبلور بعضها على شكل تيارات أو مذاهب واضحة الملامح.

وعموما امتدت أزمة الإيمان الديني في القرن 18 إلى الأفكار الخاصة بماهية الله، وبوجوده أيضاً، لقد رُسمت حدود بين مصطلح تأليه الطبيعة والتأليه بالمعنى الصحيح؛ أي تأليه الله. مؤلهو الطبيعة يؤمنون بوجود إله ما. أما التأليهيون، فيؤمنون بالله الحي، مؤله الطبيعة يمكنه قول القليل عن الله، بأنه موجود وعلة العالم، بينما التأليهي يتعدى ذلك بكثير، فالله علة العالم ومبدأ كل مصدر لنظام أخلاقي أيضا. مؤلهو الطبيعة عموماً، ورغم اختلافهم لا يعتقدون في الوحي والمعجزات، والثواب والعقاب.[29]

رابعاً: نقد الكتاب المقدس في الدراسات المعاصرة

كيف هو الوضع الذي آل إليه الكتاب المقدس بعد السجالات القوية مع المعارضين له والمشككين في مصداقيته؟

ذكرنا نماذج لهذا النقد في القرنين السابع عشر والثامن عشر مع سبينوزا وريتشارد سيمون وفلاسفة التنوير، هذا التأسيس كان كافياً لتتعمق طريقة النقد التاريخي في أسلوبها ومناهجها، خاصة في القرن التاسع عشر، مع اللاهوتيين الألمان الذين تأثروا كثيراً بالمنهج التاريخي، وطبقوه في دراسات مستفيضة على التوراة والتاريخ الديني. لكن الذي حدث أنه حين طُبقت مقاييس البحث التي طُبقت على دراسة فرجيل وهوميروس وسجلات القرون الوسطى وتواريخها، لم يبق للناس مناص من الاعتقاد بأن الكتاب المقدس، يتضمن أساطير الشعب العبراني الأولى، واختباراته واكتشافاته الروحية المتأخرة، خلال فترة طويلة من الزمن، وأن محاولة النظر إلى "الكتاب الإلهي" على أنه قطعة واحدة، وعلى أنه بجميع أقسامه واحد من حيث الوحي والقيمة، إنما هو أمر مستحيل.[30] وأمام هذه الاستحالة التي تؤكدها طرائق علمية بعيدة عن الإيديولوجية أو المراوغة، ورغم

[28]- ليود سبنسر، عصر التنوير، ص 123
[29]- فرانكلين باور، **الفكر الأوربي الحديث**، القرن الثامن عشر، ص ص 63-64
[30]- راندال، **تكوين العقل الحديث**، ص 237

غلو بعض التأويلات التي أقيمت على أساس نتائجها، والتي ردت الدّين والكتاب برمته إلى فعل لا يتجاوز الأسطورة، رغم هذا فإن ردود الفعل تباينت سواء من قبل المؤمنين أو الفلاسفة العقلانيين المؤمنين أيضا، إلى جانب رد الفعل الرسمي للسلطات الكنسية. لكن المؤكد أن الحرج والصعوبات، كانت تمس جميع هذه الفئات المؤمنة، أيا كانت منطلقاتها وطرق إيمانها.

أ- العقلانية الدينية بين معطيات النقد والموقف الكنسي:

يسعى أنصار العقلانية الدينية إلى إقامة إيمانهم على أسس عقلية متينة، إلا أنهم وجدوا أنفسهم في أوضاع غير متكيفة تماماً، والتي اضطرت بعضهم إلى إعادة ترتيب وضعه، على أساس نتائج النقد الذي تم. "إنهم بوصفهم مؤمنين، مطالبون بالاعتقاد بأن الكتب التي يذكرها مجمع ترنت ***Trente***[*] هي "الكتب المقدسة"، يقول هذا (المجمع) إذا لم يأخذ أحد بهذه الكتب، على هذا المنوال "كلها" بجميع أجزائها كما جرت العادة بقراءتها، فلتنزل عليه اللعنة. وفي سنة (1870)، يكرر مجمع الفاتيكان الجملة: اللعنة على من لا ينظر إلى (الكتب المقدسة) كلها بجميع أجزائه وكما يحددها مجمع (ترنت) نظرة تقديس وموافقة للقانون الكنسي"[31]، هذا من جهة.

من جهة أخرى، النقد المسلط على الكتاب المقدس مستمر في أبحاثه، لا يعبأ بمثل هذه اللعنات، بل مستمر في مناقشة أصالة الكتاب، بل إن الدراسات اللاهوتية النقدية للكتاب في الغرب تحظى باهتمام المختصين.

وقد كشفت الدراسة الدقيقة للنصوص من أجل معرفة واضعيها، وتواريخ وضع مختلف أقسامها، وهو ما يسمى "**بالنقد الأعلى**" عن وجود تباين، أساسي مع الاعتقادات التقليدية، والأوامر المتباينة التي يُزعم أنها من عند الله، جعلت التوفيق بين النظرة البروتستانتية القديمة القائلة بأن كل كلمة، وكل نقطة، إنما هي وحي إلهي حرفي، وبين الإيمان بحكمة الله وتعقله أمرا في غاية الصعوبة.[32]

وهذه الصعوبة يتمثلها المؤمن الذي يريد أن يتعقل إيمانه، أكثر من غيره فكيف يكون وضعه، ووضع العقلانية الدينية ككل اتجاه هذه الطرائق الأكيدة، وهذه النتائج المتينة؟ فإذا نظرت هذه العقلانية إلى الزائف على أنه صحيح، لم تبق عقلانية، وإذا نظرت إليه على أنه زائف أصابتها اللعنة.[33]

---

[*] مؤتمر عقد 1545-1563 حدد دستور الإيمان

[31]- ألبير بايه: الثورات العقلانية، ترجمة عادل العوا، دار شمأل، 1996، ص 39

[32]- راندال، **تكوين العقل الحديث**، ص 237

[33]- ألبير بايه، **الثورات العقلانية**، ص 40

وهنا تباينت ردود الأفعال، فهناك من سلّم بصحة الكتاب، وبقي مؤمناً تحت مظلة الكنيسة الكاثوليكية التي أصّرت على رفض كل نتائج النقد، بينما اتجاهات أخرى مثل النزعة الإنسانية، والبروتستانت، والمؤمنون العقلانيون، ولأجل معرفة الحقيقة، فقد طبّقوا بأنفسهم القواعد التي تمّكن من إظهار صحة النص كليا أو جزئيا وإظهار معناه الحقيقي، وتوصلوا تدريجياً إلى نتائج يقينية، تشبه في يقينها نتائج العلم المادي، مما أدى إلى تفجير الوضع، خاصة مع السلطات الكنسية.

ويزداد الوضع احتقاناً، بالذهاب بالنقد إلى حدود بعيدة نتيجة التأثر بالدراسات اللغوية والأدبية ومناهج تفكيك النص...والتي قادت بعضهم إلى إنكار وجود عيسى التاريخي من خلال الوثائق المتوفرة، أو إنكار ألوهيته...وغيرها من النتائج التي صدمت الكنيسة وشعور المسيحي المؤمن عموماً.

وهذه الصعوبة للتذكير، لا تتعلق بمسألة المعجزات، فهذه لم تثر إشكالاً حتى عند العقلاني المؤمن، لأن لها منطقها الإيماني، إلى جانب دلائل أخرى كالتي ثبتت بالتواتر، لكن الإشكال يصدق على النص من حيث التشكيك في أصالته ومصدره، بل في تناقضاته الصريحة والواضحة بين نسخة وأخرى، بين إنجيل وآخر والأمثلة كثيرة منها:

"المؤرخ يلاحظ، أن (يسوع) في (مرقص) يصرح بأنه يجهل موعد القيامة[34] والمؤمن يترتب عليه قبول أن (يسوع) لا يخفى عليه شيء. ما العمل بإزاء صعاب بمثل هذا العُسر؟ أجل قد يميل الفكر الكاثوليكي إلى القيام ببعض تنازلات للفكر العلمي، ومن هذا الميل وُلدت نزعة الحداثة. ولكن أخيراً من الواضح أن ليس في وسع الكنيسة التظاهر بأنها مرنة حيال (رينان ***Renan***) أو (لوازي ***Loisy***) أو (جنيبر) مرونتها حيال (كوبرنيك)".[35]

وهكذا صدرت مراسيم الهجوم والتحريم، على مثل هذه الدراسات، وعلى أصحابها ومرسوم تحريم الحداثة ملفت للانتباه، لأنه أتى في صيغة "القسم اللاحداثي" سنة 1910 "ينبغي على العالم الكاثوليكي، لكي يظل كاثوليكيا، أن يقسم على تفسير (الكتاب) في ضوء تعاليم (الكنيسة)".[36]

كيف يفعل الكاثوليكي المؤمن العقلاني في آن واحد، هل يرفض المنهج العقلي، وبالتالي يتنازل عن عقلانيته، ليحتفظ بإيمانه فقط، أم يضحي بدينه في سبيل عقلانيته؟

---

[34]- مرقس 32/13، وأما ذلك اليوم، وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلاّ الأب.

[35]- ألبير باية، **الثورات العقلانية**، ص 44

[36]- المرجع نفسه، ص 45

وأمام هذا الوضع ضحى البعض ليس بالدّين، ولكن بالكنيسة، وفاء للنتائج التي توصلوا إليها وفق مناهج علمية دقيقة، مثل (لوازي، هوتان، جنيبر) والبعض ظل وفياً للكنيسة، مثل الأب (لاكرانج).

وتتصاعد الصعوبات أكثر مع نتائج "علم الأديان المقارن"، فالمقارنة بين عقائد المسيحية ومثيلاتها وسط العالم الروماني، كشفت عن وجود عقائد متشابهة جدا، باتت معلومة عند المهتمين والمختصين، الوثنية نفسها تقدم عقيدة الفداء والمُخلص والخطيئة والعذراء، بل هذه المقارنات قادت إلى نتيجة مفادها، أن انتصار المسيحية على ديانات الخلاص التي تشبهها، أو انبثقت عنها، هو انتصار سياسي لا أكثر.

وحاول البعض أن يتقدم بحل، إذا تم النظر إلى الكتاب المقدس، على أنه عمل عقول بشرية تأثرت تأثراً عميقاً بحس إلهي في الأشياء، فإن كل صعوبة تزول وتصبح الكتب المقدسة سجلا للمحاولات الأسطورية والخيالية الأولى من أجل فهم العالم ومعناه، وللشعر المقدس، وللقوانين الدينية والمدنية، وللرسالات النبوية المنبعثة من أرواح نبيلة، وكلما توسعت الدراسات في الديانات المقارنة ونشوئها اتضح أن الكتاب المقدس المسيحي يبدو مماثلا، من جميع الجهات للآداب المبكرة والكتب المقدسة عن الشعوب والديانات.[37]

وهكذا تتسع الشقة بين منطق هذه الأبحاث أيا كانت تخصصاتها، وبين منطق الإيمان غير المصدق لنتائجها، المتمسك بصحة كتابه المقدس بشكل مطلق، وطبعا تأكد البعض أمام هذا الإفراز غير المتجانس، صعوبة التوفيق بين العقلانية أو البحث العلمي من جهة وبين رجال الدّين من جهة أخرى، والبعض لم ير ذلك صعبا فقط، بل مستحيلاً، بينما سعى البعض إلى التوفيق بين حقائق مبرهن عليها، وأخرى يتعذر البرهان عليها. وفي قبول بعض العلماء لتحالف الإيمان والفكر الانتقادي، فإن ذلك يبرز – ربما - بأن للقلب أسبابا يجهلها العقل [38]، ومعروف أن الإيمان قضية يلعب فيها القلب أو الروح دورا كبيرا.

هذه مقدمة عامة لتطور النقد المعاصر، والذي نحاول الوقوف عند أهم إسهاماته من خلال بعض اللاهوتيين المعاصرين.

ب- الدراسات النقدية المعاصرة للكتاب المقدس بين التأييد والمعارضة:

يقول اللاهوتي شارل جنيبر "نستطيع اليوم أن نسجل الدراسات النقدية لأصول المسيحية ولتطور الكنيسة في سجل العلوم التاريخية، ولكن هذه الدراسات لم تحرز هذا التقدم ما قد يخيل لنا أنها قد أحرزته".[39] هذا

[37]- راندال، **تكوين العقل الحديث**، ص 238
[38]- ألبير بايه، **الثورات العقلانية**، ص 48
[39]- شارل جنيبر، **المسيحية نشأتها وتطورها**، ترجمة عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية بيروت، ص 14

صحيح، بالنظر إلى تاريخ المسيحية وتاريخ العهد القديم الذي تعتمده المسيحية، لهما باع طويل، وتم اعتمادهما في سياق تاريخي معقد، وفي إطار نظام لاهوتي صارم مليء بلغة الأسرار، ولفك هذا التعقيد والوقوف على لغة الأسرار مطلوب من الباحث الجهد والصبر الكبيرين.

إن السياج الرهيب الذي أحيط به الدّين داخل أسوار الكنائس، وتحت رقابة رجالها ومتابعة محاكم التفتيش، يضاعف من حجم الصعوبات، والتي يدركها المختصون تمام الإدراك "لقد ظل المدخل إلى معرفة المسيحية الأولى، حتى منتصف القرن التاسع عشر محرّما تحريما باتا عن العلماء المنزّهين من الغرض؛ أي على هؤلاء الذين لا يعنيهم استغلال الحقيقة لمصلحة مذهب معين، بل يبغونها خالصة لوجهها".[40]

وفي الحقيقة تأثير عملية التحريم، مازال مستمرا لدى العامة من المؤمنين التي ترى في محاولة قراءة النص المقدس قراءة علمية أو نقدية، أو حتى تأملية تفسيرية محاولة آثمة لأن فكر العامة، مازال تحت التأثير الأول للتربية المسيحية التي قبلها أو اضطر إليها بادئ ذي بدء، لا يجادل فيها، ولا يشغل فكره بها، خاضعا في سذاجة ساذجة، لما افترض من محرّمات، متجنبا تلك الأبحاث التي رأى أن تعاليم الكنيسة تغني عنها، وتنهي عن قراءتها، مؤمنا أن الإقدام عليها جزء من عمل الشيطان، يؤدي بالنفس إلى التهلكة.[41]

ثم إن استهجان النقد والجدل حوله طبيعي في الحقيقة، خاصة في البلاد الغربية التي لم تعرف مثل هذا النوع من الدراسات إلا حديثاً؛ فقد "خلت قرون بالنسبة إلى التوراة في عهديها القديم والجديد، والناس عبرها يكتفون بقبولها على حالها وقراءتها لم تكن تسمح إلا بتمجيدها بتأملات مبررة، لأن أي اتجاه إلى نقدها كان يعتبر إثما".[42]

لكن على النقيض الاتجاه العقلاني والعلماني عموماً، بحث ودرس النص المقدس، مسلطاً عليه كل أدوات النقد المتاحة، وهو الاتجاه الذي فرض نفسه، بعد قرون المنع والتحريم، وفعلاً "تمّكن نقد النص – وقد اصبح اختصاصا علميا – من كشف وإذاعة مسائل ذات أهمية تطرح نفسها".[43]

وأمام هذا الوضع، ما كان على رجال الدّين إلا الدخول في عملية النقد هذه مسايرة للنزعات العقلانية، معلنين أنهم يهدفون إلى كشف الحقيقة، لكن العكس هو الصحيح، إن هذا الفريق يلجأ إلى أساليب ملتوية لإبقاء الأمور على حالها وحجب الحقيقة، مما يتعارض مع النزاهة العلمية، وأمام هذا

---

[40]- المرجع نفسه، ص 15

[41]- موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والعلم الحديث**، ترجمة نخبة من الدعاة، دار الكندي، لبنان، ط2، 1978، ص 10

[42]- المرجع نفسه، ص 16

[43]- المرجع نفسه، ص 10

السلوك، لم يملك الناقد بوكاي إلا أن يعلّق "كم هي مخيبة للآمال تلك المؤلفات التي تدّعي أنها ناقدة، في حين لا تقدم إزاء صعوبات الترجمة إلا بعض التوسعات التقريضية الهادفة إلى تغطية ارتباك المؤلف...ولا يمكن إلا التأسف – وصد كل منطق – على الموقف الهادف إلى تبرير الاحتفاظ في نصوص الكتب التوراتية ببعض الفقرات الملطخة بالعيوب".[44]

لكن أية تغطية مستحيلة، وأي تبرير غير مقنع، مادام النقد يعمل بكل جد لكشف الحقيقة دون أن يجامل أي طرف كان، ثم إن رجال الدّين المتعصبين يتخيلون أنهم بهذه الأساليب الملتوية، يدافعون عن الدّين، لكن فعلهم هذا يضر بالدّين لأنه في حال اكتشاف الخدعة فإن رد الفعل يكون سلبيا وقويا.

هكذا، نلاحظ أن النقد جاري فعلاً، رغم الجدل الذي يثيره والاعتراض عليه خاصة من قبل السلطات الكنسية الرسمية، هذا النقد تواجهه كما ذكرنا العديد من الصعوبات وعلى رأسها مشكلة النصوص في حد ذاتها.

ج- مشكلة تحريف النصوص المقدسة:

وتعد على رأس الصعوبات، لأن نصوص الكتاب المقدس تمتاز عن سائر النصوص الأخرى، بضعف السند والاضطراب وعسر التحقيق، ومعلوم أن تحقيق أصالة النص هو حجر الزاوية في عملية النقد، والذي يعد شرطا لإعادة بنائه والوثوق به ولو جزئيا، من هنا نجد الناقد يتساءل عن الهدف من عملية النقد في حد ذاتها "إن الهدف أول الأمر يفرض طرح سؤال أساسي هو: ما هي أصالة النصوص التي نملكها هذه الأيام؟ وهذا السؤال يستلزم اختبار الظروف التي تحكمت في كتابتها ثم في نقلها إلينا"[45] وهو سؤال الأسئلة في حقل النقد التاريخي للنص المقدس بدليل اتفاق المشتغلين حوله، وكذلك اتفاقهم حول الكثير من النتائج التي توصلوا إليها.

ولكن ما يجب التأكيد عليه، أنه مهما يتوصل النقد إلى نتائج تطعن ضرورة في أصالة الكتاب، فهذا لا يعني نسفه كله، أو التشكيك في مصداقية الدّين كما فضل البعض، إن وجود تناقضات داخل النص، لا يعني غياب الحقيقة غيابا مطلقا ثم "إن وجود هذه التضادات والاستحالات والتناقضات لا يخدش الإيمان بالله مطلقا... ولكنها تثير فقط مسؤولية البشر، إذ ليس من أحد يملك قول ما كان يمكن أن تكون عليه النصوص الأصلية، وما

[44]- موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والعلم الحديث**، ص 10
[45]- المرجع نفسه، ص 10

هو نصيب الكتابات التي أملاها الهوى، وما هو نصيب تصرف البشر بالنصوص، كذلك التغيرات اللاشعورية للكتابات المقدسة".[46]

وفعلا المسؤولية، مسؤولية البشر، وليست مسؤولية الأنبياء، ثم إن البحث بوسائله المتطورة، وفروعه العديدة كفيل بإبراز الكثير من الحقائق، والتي نقف على البعض منها، وبداية مع العهد القديم.

1- أصالة نصوص العهد القديم:

بما أن المسيحية تؤمن بالعهد القديم، بل وتؤسس عليه الكثير من عقائدها؛ فهو أَوْلى أن يُوثق فيه، ولهذا نجد اللاهوتي المسيحي، لا يلج الإنجيل عند نقده، حتى يكمل نقده للتوراة أو العهد القديم، وهذا ترتيب تاريخي صحيح.

بالنسبة لنتائج النقد، فالعهد القديم، لم يسلم من الطعن في أصالته، رغم أن الباحثين، كانوا يعتقدون أن الصعوبة تعترض الإنجيل أكثر، بالنظر إلى نقد مصادره. لكن واقع الأمر أثبت أن "أصالة أسفار التوراة أكثر تعقيدا مما كان متصوراً في البدء" مثلها مثل أصالة الأناجيل، ثم من المهم أن نعلم "بأنه كان في الأصل..كثرة من النصوص وليس نصا واحدا، ولقد كانت هناك نحو القرن الثالث قبل المسيح، ثلاثة أشكال لنص التوراة العبري على الأقل"، والأدهى من ذلك أن الباحثين توصلوا إلى "أن أقدم نصوص التوراة العبرية، يعود إلى القرن التاسع بعد المسيح"[47]، طبعا مع وجود ترجمات يونانية أقدم، لكن النص العبري الأصل متقدم جداً في الزمن كما نلاحظ، والمقارنة بين النسخ المعروضة والنسخ التي تكشفها الحفريات، قادت إلى أحكام جديدة، كما أيدت نتائج النقد السابق، سبينوزا وفولتير سلّطا نقدا تاريخياً على العهد القديم، والعمل متواصل الآن، بل وطرح الأسئلة أيضا، بوكاي يعيد طرح نفس تساؤل سبينوزا:

من هو مؤلف العهد القديم؟ إن أي شخص قد يطرح هذا السؤال، والذي تبدو إجابته سهلة، لأنه مذكور في مدخل التوراة بأن "الله" هو "المؤلف" مع أن الذين كتبوها هم بشر، لكن اليوم النظرية التي تنسب الأسفار إلى موسى "أهملت نهائياً باتفاق الجميع، ولكن هذا لا يمنع أن ينسب العهد الجديد إلى موسى أبوّته للأسفار الخمسة".[48]

---

[46]- موريس بوكاي، المرجع نفسه، ص 13

[47]- المرجع نفسه، ص ص 15-16

[48]- موريس بوكاي، **أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية**، المكتبة العلمية، ط1، 1981، ص 23

وفي محاولة دفاعية، الكنيسة تشير إلى استدراك كاتب مقدمة التوراة الذي نبه بأنه يحتمل وجود إضافة بعض التفاصيل عن النص الأصلي، إلا أن ذلك لا يشوّه جوهر وحقيقة الكتاب. هذا ما تحتج به الهيئات الدينية الرسمية، بعد مقارنة وتحقيق النصوص المتعارضة والنسخ المختلفة، دفاعاً منها عن صحة الإيمان وعن أصالة الكتاب. لكن الأمر مختلف بالنسبة للباحثين النقاد، إننا "عندما نرجع إلى مؤلفات مكتوبة من رجال دّين ليسوا مهيئين لتبسيط الفكرة إلى العامة، نرى مسألة أصالة أسفار التوراة أكثر تعقيداً"[49]، ودون الدخول في تفاصيل دقيقة نذكر الحوصلة التي توصل إليها بوكاي التي يؤكدها في كتاب تالي، والذي سبق وأن أحلنا عليه يقول:

"العهد القديم هو عبارة عن مجموعة مؤلفات متفاوتة بطول النصوص وبالنوع، مكتوبة خلال فترة تتعدى تسعة قرون وبلغات مختلفة، انطلاقا من روايات شفهية، وأن عددا من هذه الأسفار قد صُحّح وأُكمل في عصور متباعدة أحيانا عن بعضها البعض، ومن المعقول أن تتزامن الكتابات الأولى مع بداية الملكية الإسرائيلية حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وظهور الكتابة في المحيط الملكي، هذه النصوص تشكل مقطوعات مبعثرة هنا وهناك في أسفار العهد القديم".[50]

وأكثر من ذلك، توصل المختصون إلى تحديد أربعة مصادر للتوراة، وبإجماع أيضاً، بعد أن كان يعتقد بوجود مصدرين فقط.

وكتاب ريتشارد إليوت فريدمان المختص في اللغة العبرية، يوضح هذه المسألة بشكل جيد؛ ففي البداية اكتشف الباحثون أنه يوجد نصان مختلفان لعدد كبير من قصص العهد القديم، قصتان مختلفتان لعملية الخلق وكذلك لتاريخ الآباء، كذلك لا يغفل أن هذه النصوص تذكر الرب باسمين مختلفين "يهوا" و"إيل"، وهنا تم التأكد من مصدرين "اليهوي" و"الإلوهيمي".

لكن هذه النتيجة لم تصمد لأكثر من ثمانية عشر عاما، حيث "اكتشف الباحثون أن أسفار التوراة الخمسة، لم يكتبها مؤلفان اثنان فقط، بل أربعة... إن نفس الشواهد التي أدت إلى اكتشاف اليهوي والإلوهيمي، أدت إلى اكتشاف مصدر خفي داخل المصدر الإلوهيمي، حيث أشارت عدة فروق إلى نوايا مختلفة تدعمها الحيلة ففي مجموعة القصص الثالثة، لوحظ اهتمام خاص بالكهنة، وكثرة القصص عنهم، وكذلك عن أحكام الكهنة وحساب

[49]- المرجع نفسه، ص 15
[50]- المرجع نفسه، ص 145

الأعياد والمعايير والأعداد، ولقد سمي هذا المصدر باسم "الكهنوتي" واختصاره "ك""[51]، والذي يعد أطول مصدر.

إلى جانب مصدر رابع يتعلق بسفر التثنية الذي يرجع تأليفه إلى القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد[52]، وهناك من رده إلى عصر متأخر جدًا، هو القرن الخامس قبل الميلاد، وتغلب عليه الصفة القانونية، وهو من عمل الراهب أوره.[53]

لقد تم تحديد المصادر الأربعة في كتابة التوراة، ولكن هذه نقطة من بحر "فمن الواضح أنه لا تزال توجد فجوات، مثل أسماء مؤلفي المصدر اليهوي والمصدر الإلوهيمي. لكن مع هذا استمر تدوين العهد القديم ألف سنة ومئات أخرى من السنين، حتى أضاف إليه المسيحيون العهد الجديد، إذا كانت هذه السنوات الطويلة قد مرت على تدوينه، فليس من الغريب أن تمر ألف سنة أخرى على حل هذه الألغاز".[54]

النقد بكل مستوياته أثمر كما نلاحظ نتائج حازت اتفاق أغلب الباحثين، وهذا يعطيها الكثير من المصداقية، كما يعطي الباحثين الثقة لمواصلة البحث، رغم دروبه الوعرة التي تحاول كشف الحقيقة، عبر قنوات عدة؛ لغوية، أدبية، أثرية تاريخية مكنت في النهاية من تقديم قراءة جديدة للعهد القديم، يقول إليوت فريدمان:

"لم تبق القراءة في العهد القديم، كما هي؛ ففي ظل المعلومات التاريخية غير العادية عن العهد القديم، نقرأ هذا الكتاب أكثر ونتعمق في بحثه، بل نستطيع أن نقرأ صفحة واحدة من العهد القديم، ونعرف ثلاثة أو أربعة مؤلفين قد كتبوها، كل من منطلق تجربته الشخصية، وفي أوقات تاريخية مختلفة"[55] مدتها تتجاوز الألف عام مما يجعل البحث في بدايته.

لكن رغم هذه النتائج الموضوعية، الدقيقة، فيما يخص كتابة الأسفار الخمسة عدة مرات ومن مؤلفين عديدين أيضاً، إلى جانب أجزاء أخرى من العهد القديم، إلا أنه مازال من يُصر أن هذه مجرد زيادات ليس إلا.

[51]- ريتشارد إليوت فريدمان، **مَنْ كتب التوراة؟**، ترجمة عمر زكريا، مراجعة أيمن حامد، دار البيان للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 46
[52]- انظر موريس بوكاي، **أصل الإنسان بين العلم والكتب السماوية**، ص 148
[53]- راندال، **تكوين العقل الحديث**، ص 238
[54]- ريتشارد إليوت فريدمان، **مَنْ كتب التوراة؟**، ص ص 208-209
[55]- المرجع نفسه، ص 209

"وإنه لمن المؤسف أن نرى الإبقاء على المفاهيم الخاطئة عن العهد القديم مبسطة بين أيدي الناس"[56] بالرغم من أن الأسفار الخمسة "هي في مجال النقد للنص، المثل الأكثر وضوحا للتعديلات التي أجراها الناس في مختلف عهود تاريخ الشعب اليهودي، وللروايات الشفوية، وللنصوص المأخوذة عن الأجيال الماضية".[57]

هذا بإيجاز فيما يخص النقد المعاصر للعهد القديم، ترى كيف هو النقد الذي سلّط على الإنجيل أو العهد الجديد؟

2- أصالة نصوص العهد الجديد:

انتقال النقد من العهد القديم إلى الجديد، يثير صعوبات أكثر تعقيداً، لأن ما حدث في المسيحية من تطورات تاريخية، وما ألحق بالنص نتيجة هذه الأحداث أكبر بكثير، ثم إنه لا يوجد نص واحد أصلاً، فإلى جانب الأربعة التي تؤمن بها الكنيسة توجد نسخ أخرى، وهي موضع اهتمام النقاد والمؤرخين، ثم لماذا حُرّمت، وعلى أي أساس تم اعتماد أربعة فقط؟ هذا من جانب، من جانب آخر يوجد في المسيحية ثقل عقائدي يفوق الموجود في التوراة؛ العقائد المسيحية خاصة التثليث والصلب والتجسد وألوهية المسيح، تشكل في حد ذاتها بحثاً تاريخاً مستقلاً، يحاول معرفة أصولها البعيدة عن عيسى التاريخي بردها إلى عقائد سابقة عليها، وهذا يهم علم الأديان المقارن خاصة.

الذين كتبوا في الموضوع كثيرون وكلهم يجمعون على الصعوبات، وعلى التحريف الذي حصل، وعلى أن الكتابات الإنجيلية متأخرة في الزمن، ولم تصدر عن شهود عيان كما هو شائع في التعليم الكنسي، وكما يعتقده المؤمنون المسيحيون.

يقول ***Boismard***: "بالنسبة للعقائد التي نؤمن بها اليوم، لم تأت مع ميلاد المسيحية، أو في الغد، أو كذلك عقب صلب المسيح، الحواريون لم يؤمنوا بعد بأن عيسى إله، ولم يكن لديهم أي مفهوم عن سر التثليث، ولم يشكوا حتى في أن موت سيدهم يحمل قيمة ما تتصل بفداء أو خلاص، هذا ما أقره اللاهوتيون المعاصرون".[58]

والمتأمل في هذه الفقرة، يدرك أن ما وقف عليه المؤلف، خاصة وأنه اهتم بفجر المسيحية، وكيف تشكلت العقائد، وما توصل إليه من نتائج، يصب في جوهر المسيحية، لأنه يتعلق بالعقائد الأساسية للمسيحية، والمعتمدة

[56]- موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والعلم الحديث**، ص 22
[57]- المرجع نفسه، ص 25
[58]- Marie- Emille Boismard: A l'aube du christianisme, la naissance des dogmes, edit du cerf, Paris 1999, P 7

بشكل رسمي. لكن الإشكال أو المفارقة، أن الحواريين ليس لديهم أي تصور عن هذه العقائد المعتمدة: ليس لديهم أي تصور عن التثليث، لم يربطوا حادث الصلب بعقيدة الخلاص، والأهم لم يؤمنوا أبدا بألوهية عيسى.

إذن نتائج النقد تقف على خط التعارض مع العقائد المسيحية المعتمدة. لهذا، فإن سؤالاً مثل هذا يطرح نفسه: "في أي وقت وُلدت ونشأت أهم عقائد الكنيسة، وكيف تطورت تدريجياً، وأخذت شكلها الحالي" لكن عقلانية وموضوعية الباحث، تشير إلى أن الإجابة عن الشق الثاني من السؤال والمتعلق بتطور العقائد المسيحية، لابد من تأجيلها إلى بحث لاحق، لأن الأولوية الآن تنصب على تحديد "الزمن" في أي وقت وبالتحديد ولدت هذه العقائد؟ ويمكن أن نستكمل السؤال بهدف الإيضاح؛ هل وُلدت مع المسيح؛ أي هو الذي أتى بها، أم بعده؟ وإذا كانت بعد موته، من هم الذين قدموها وصاغوها بشكلها الحالي؟

وهكذا نلاحظ تعقد البحث، ويضرب ***Boismard*** مثالاً على هذا التعقد "إنه من الواضح، أنه لعرض معتقد واحد، كالتثليث، فإنه يلزم إكمال ما ورد من معطيات في العهد الجديد، وذلك بالرجوع إلى الصراعات والخصومات التي سبقت مجمع نيقية 325م، والذي أصدر حكم الإعدام وبشكل نهائي على الآريوسية"؛[59] أي للفصل في ميلاد معتقد التثليث، لابد من الرجوع إلى تفاصيل ثلاثة قرون ما بعد المسيح، والشيء نفسه ينطبق على العقائد الأخرى، هذا يبرز صعوبة البحث وأكثر من ذلك الباحث يستشعر الخطر: "إنه يوجد خطر بحيث أن عددا من المفسرين واللاهوتيين وحتى المحنكين لم يستطيعوا تجنبه دائما"[60]، والخطر الأكبر علاج الخطأ القديم بخطأ جديد، والتعجل في عرض النتائج، ولتجنب هذا، لابد من الاحتكام إلى النصوص الصحيحة، نعم النصوص الصحيحة لكن أين هي هذه النصوص؟

إذا قلنا العهد الجديد، يعني الأناجيل الأربعة التي اعترفت بها الكنيسة، رغم وجود تناقضات كثيرة بينها، لكن مؤلفي الأناجيل، وحتى ولو فُرض نسبة هذه الأناجيل إليهم، فإنهم في النهاية لم يكونوا شهود عيان على الأحداث، فمن هم الشهود الحقيقيون؟ وتجر الأسئلة بعضها البعض.

وبهدف إبراز مصاعب البحث والنقد التاريخي، نقف عند إشكالية المصدر مصدر الأناجيل الأربعة المعتمدة.

- **إشكالية المصدر:**

[59]- Ibid, P 7
[60]- Ibid, P 8

ما هو مصدر الأناجيل؟ كلمة مصدر باتت شائعة الاستخدام عند كل مؤرخي وعلماء اللاهوت المسيحي، و"كلمة "مصدر" "***Source***"، لا تشكل اختلافاً، إنها تستخدم من طرف مؤرخي ومفسري العهد الجديد، لتعيين الوثائق التي على أساسها يقومون بعملهم"؛[61] أي الوقوف على صحة المصدر خطوة ضرورية لكشف الحقيقة حقيقة المصادر، وتمييز الصحيح من المنحول منها.

بالنسبة للمسيحية، كمصادر، توجد الأناجيل فقط، "على عكس البعض الذي يعتقد، أو يريد أن يعتقد غير ذلك؛ فالمسيحية لم تترك في العصور القديمة إلا كتباً، فلا آثار ولا رفات ولا صور، لا يوجد إلا نصوص وغالبا مسببة للدوران"[62]، وبالنظر لصعوبة البحث، فإن المشتغل في هذا الحقل كثيراً ما يستشعر اليأس مسبقاً، فقد اقتنع البعض أن البحث عن مصادر العهد الجديد؛ أي حقيقة الأناجيل، كالبحث عن السراب والعدم، لذلك يسأل مؤلفا الكتاب:

"المسيحية التي تسيطر على العالم الغربي، قُرابة العشرين قرنا، هل في الإمكان اليوم العثور على أصلها، وتحديد نقطة انطلاقها؟ نعم توجد هيئة بحث تلزم نفسها بذلك، لكنها على ثقة، أنه يُفضل لها أن تعبث، بدل البحث عن النهر الذي يوجد منبعه في البحر".[63]

وعلى الرغم من الدوار واليأس، فلا يوجد حل آخر غير الصبر والاجتهاد، إلى جانب هذا توجد النوايا الحسنة، فالباحث لا يفترض التناقضات مسبقاً، على العكس يحاول أن يعثر داخل الأناجيل على ما يؤيد عقائد الكنيسة.

يؤكد ***Boismard*** من جهة أخرى "وبكل وعي، غالبا، أردنا أن نجد داخل العهد الجديد النصوص التي بإمكانها أن تؤكد الإيمان الحالي للكنيسة"[64] ولتأكيد هذا أو نفيه أغلب الدراسات النقدية تركز على القرون الأولى للمسيحية، لأنه من خلالها يتم التأكد من مدى صحة الأحداث التي نقلتها الأناجيل، وهذه خطة عمل مشتركة بين اللاهوتيين المسيحيين.

[61]- Gérard Mordillât, Géromé Prieur: Jésus après Jésus, l'origine du christianisme, seuil, France, 2004, P 9
[62]- Ibid, P 9
[63]- Ibid, P 9
[64]- Marie- Emille Boismard: A l'aube du christianisme, la naissance des dogmes, P 8

"نريد إعادة بناء تكوين المسيحية، في أكثر من قرن بقليل، وذلك من خلال قراءة رسائل بولس التي هي أسبق من الأناجيل؛ أي الكتابات الأكثر قدما في العهد الجديد، كذلك من خلال قراءة أعمال الرسل النص الوحيد الذي يقدّم ما حدث في السنوات التي تلت موت المسيح".[65]

الملاحظ، تم اعتماد خطة بحث تركز خاصة على القرن الأول من المسيحية لكن سؤالاً آخر يطرح: كيف تقرأ هذه النصوص وهذه الأناجيل؟

لقد تقدمت تقنيات البحث والتنقيب، وكذلك تقنيات قراءة النص، تقدما كبيراً، مكّن من الكشف عن الكثير من الغموض والأسرار، لهذا نجد اللاهوتي يقول وبثقة:

"نقرأ، كيف تتحاور هذه النصوص فيما بينها، كيف تتجادل، كيف تجيب كيف تتجاهل، ونقرأ الخلاصات والنتائج التي استخلصها المثقفون المسيحيون الأوائل، آباء الكنيسة، وكذلك خصومهم الذين اعتبروا ملاحدة، وأصحاب هرطقة".[66]

ومن المهم جدّا الالتفات بكل عناية إلى الخصوم، فدراسة الفعل، تستلزم دراسة الرد عنه أيضا، قراءة النصوص المعارضة للكنيسة، على قلتها، تكشف الكثير من الحقائق.

إذن، العودة إلى المصادر هي الحل، لكن بقراءة مختلفة، لا تستند إلى فرضيات مسبقة أو مسلمات يقينية أو عقائد جاهزة "هذه المصادر يجب أن تستنطق وتسأل وينّقب عنها في تنافرها وتناقضها، لكي نصل إلى: كيف صنعت هذه المصادر التعصب الدّيني، كيف شكلّ كل اسم منها ثقلا داخل التاريخ، كيف تجيب كل جملة كيف أعيدت كتابتها، كيف اختلق نسب ثاني للمسيح عيسى؟".[67]

إنه مشروع ضخم، عمل أكاديمي عالي المستوى، بصدد الإنجاز، يستنطق المصادر، وهذا كله يندرج تحت ما يسمى بالنقد التاريخي للنص المقدس، والذي كشف أوهاما كثيرة.

- **مؤلفو الأناجيل والوهم الشائع:**

كل من يقرأ سيرة المسيح، من ميلاده إلى دعوته القصيرة جدّا، إلى رد فعل اليهود على هذه الدعوة، يتبين الفشل أو الهزيمة التي مُنيت بها دعوته، آمنت به قلة فقط، وهذه القلة للأسف، لم يتسن لها القيام بمهام الدعوة بعده، لقد أخذ بولس زمام الأمور، وانتصرت مسيحيته على مسيحية عيسى نفسه.

---

[65]- Gérard Mordillât, Géromé Prieur: Jésus après Jésus, P 11
[66]- Ibid, P 11
[67]- Ibid, P 11

لكن الوهم الشائع يخالف واقع الأحداث التاريخية الأولى، وعلى العكس من ذلك يعتقد غالبية المسيحيين، أن الأناجيل، كُتبت من الشهود المعايشين لحياة المسيح الذين رتبوا من هذا الواقع شهادات لا ريب فيها من الأحداث التي شغلت وجوده ووعظه.

هذا هو التعليم الذي نشرته الكنيسة، ومازالت تنشره للعامة من المؤمنين مؤكدة أصالة المصادر والأناجيل طبعاً، مما يصّعب عملية التشكيك في صحة المصادر من جهة، وفي مصداقية مؤسسة الكنيسة من جهة أخرى، ثم إن هذا التعليم ليس حديث النشأة، لقد مرت قرون وأجيال والكنيسة تقول وتكرر بأن مؤلفي الأناجيل هم الشهود العيان للمسيح.

لكن الدراسة النقدية تقف على حافة النقيض مع هذه التعليمات الكنسية، خاصة وأنه بين الحين والآخر، تظهر وثائق أقدم، تكشف حقائق أخرى، من ذلك اكتشاف وثائق تعود إلى طائفة "اليهودية المسيحية" أو "جماعة الرسل الصغيرة" التي تعد أقدم أثراً من الأناجيل المتداولة، وكذلك وثائق تشير إلى الخصومات مع بولس، والتي أدت إلى وضع فرضيات عديدة، تحاول أن تجد تبريراً لسير الأحداث.

وفي هذا المقام، يمكن وضع العديد من الفرضيات، لكن فيما يخص الأناجيل؛ فإننا نجد بوكاي يراهن على الكتابات المضادة تحديداً، لأنه ووفق تفكير منطقي "لو لم يكن جو الخصومة المثارة من انقسام الفكر البولسي لما وصلت إلينا هذه الكتابات التي بين أيدينا " كتابات القتال هذه "التي ظهرت في مرحلة الخلاف والنزاع بين الطائفتين... فقد برزت هذه الكثرة من الكتابات التي ظهرت عن المسيح، عندما كانت المسيحية ذات الأسلوب البولسي قد انتصرت نهائيا، قد كوّنت مجموعة نصوصها الرسمية "القانون" الذي أبعد كل الوثائق الأخرى التي لا تتفق مع الخط المختار من الكنيسة".[68]

أي هناك كتابات سابقة، لكن أُبعدت؟! هذا من جهة، من جهة أخرى المؤكد أن أولى الكتابات، التي ذكرت الأناجيل كانت بعد أعمال الرسل، ثم إنه لا يوجد تاريخ محدد لظهور الأناجيل، ولا وجود للنسخ الأصلية، ومع ذلك الكنيسة تقدم تواريخ محددة، باتت مرفوضة من كل الباحثين.

لكن يوجد اتفاق على أن رسائل بولس سبقت الأناجيل التي عُرفت في وقت متأخر، رغم أنها حررت في بداية القرن الثاني "والترجمة المسكونية للتوراة تحدد الوقت الذي مُنحت فيه الأناجيل الأربعة، سمة النص القانوني، بأنه حوالي سنة 170م".[69]

[68]- موريس بوكاي، **التوراة والإنجيل والقرآن الكريم والعلم الحديث**، ص 58
[69]- المرجع نفسه، ص 60

هذا مع محاولة التأكيد أن مؤلفي الأناجيل رسل؛ أي أصحاب المسيح، وإن كانت هذه المحاولة عديمة الجدوى بالنسبة للباحثين المعاصرين، لأنه على فرض أنهم أصحاب المسيح، هذا يعني أنها حُرّرت في وقت مبكر جدّا، لكن النقد أثبت أنها تحتوي على أفكار وتصورات، خارجة تماما عن المسيح وعن اليهودية، وبيئة فلسطين عامة، لأنها أفكار تتصل بالمعتقدات اليونانية، الأمر الذي يؤكد أن الكتابات الإنجيلية أنجزت في وقت متأخر جدّا، أو أعيدت كتابتها مرات ومرات، لكن مع الإبقاء على نسبتها إلى أصحاب المسيح، وهذا تزوير.

وأمام هذا الوضع "إذا لم يكن بالإمكان اعتبار الأناجيل الأربعة موضوع البحث "كمذكرات" للرسل أو لصحابة المسيح، فما هو أصلها إذن؟".[70]

وهنا يلجأ الباحثون لوضع فرضيات عديدة، أهمها أن أصحاب المسيح بلّغوا دعوته بصورة شفوية فقط، المدة تجاوزت الأربعين عاماً، أما الكتابات التي تمّت بناء على جمع الأخبار والكلمات، فلا أساس تاريخي لها، وإنما يمكن عدّها كتابات أدبية عبّر أصحابها عن محيطهم، كل بطريقته الشخصية ومفاهيمه اللاهوتية الخاصة به.

وهذا الكلام صادر عن أكثر من مئة اختصاصي كاثوليكي وبروتستانتي شارحين للعهد الجديد.

وفي الحقيقة، رغم المبالغات ورغم تطرف بعض الأحكام، والتي كما أشرنا ألغت وجود عيسى التاريخي، فإن التأكيد على الصفة الأدبية للأناجيل، بات يشكل قناعة عند الكثيرين، لأن النقد التاريخي أثبت القليل من التعاليم التي نسبت للمسيح لكن النسبة الغالبة من الإنجيل لا علاقة له بها، لهذا نجد بالنسبة للباحثين غالباً ما يقرأون نصوص العهد الجديد، وكأنها كتبت من قِبَل مؤلفين يشبهونهم.[71]

هذا الموقف يستند إلى حجة؛ ففي الإنجيل يتوفر الخيال الأدبي بشكل كبير وأكثر من ذلك يوجد الطرح الدرامي... هذا يستلزم تحمل المسؤولية وليس تبرير الأخطاء، لأن الأمر يتعلق بكتاب مقدس، يتعلق بكلمة الرب، وليس بكتاب عادي.

وأمام تعنت السلطات الكنسية وتجاهلها، وأمام "صمت الروايات القديمة، ولكن أيضا في مواجهة مسؤوليتها المتمثلة في صناعة، نص منسجم (ومحكم دراميا ورمزيا ولاهوتيا)، المؤلفون بالضرورة خضعوا

[70]- المرجع نفسه، ص 60

[71]- Gérard Mordillât, Géromé Prieur: Jésus après Jésus, P 9

"لمشروع كتابة" وسواء كتبوا بصورة جيدة أو سيئة، بنية حسنة أو بحيلة، إنهم – ودون الخوف من الوقوع في المبالغة – إنهم كتّاب ***Des écrivains***".[72]

هذه هي النتيجة التي يُقرّها اللاهوتيون المعاصرون، كتّاب الأناجيل، مؤلفون عاديون، ليسوا رسلاً أو حواريين، ومع ذلك يبقى السؤال، من كتب الأناجيل، وكيف كتبها، يبقى سؤالا مطروحاً لم تتم الإجابة عنه بعد.

خامسا: مقاربات فلسفية دينية لإيجاد حل

يتضح مما سبق، أن الإنسان الغربي يعيش وضعاً دينياً قلقاً بالنظر لما ينجز من دراسات نقدية وبالنظر إلى المذاهب الفلسفية التي برزت، والتي رفضت الدين والإيمان، لكن رغم هذا الوضع الديني المتردي يبقى الإيمان بالله مطلباً ضرورياً، لهذا أجد تعليق جارودي على نيتشه، لمّاحاً وصائباً، لأنه، ذهب إلى عمق المشكلة، مشكلة الإنسان الغربي الذي تخلى عن إيمانه، إذ يقول:

"منذ ثلاثة قرون، أعلن نيتشه موت الإنسان، وكان هذا يعني كشف عزلة الإنسان، وذلك لأن القول بأن الله قد مات، معناه أن الإنسان يعيش وحده في هذا العالم لكن نيتشه كان يرمي من وراء قوله ذاك، إلى أبعد من هذا المعنى، لأنه أنكر وجود الآخر، أيا كانت الصورة التي يتشكل فيها هذا الآخر".[73]

وربما كان يستحيل الوقوف على أبعاد ما قاله نتشه في حينه، لأن الغرب، في ذلك الوقت هلّل لموت الإله، معتقدا أنه قضى على آخر أصنام الخرافة والأساطير. لكن، الواقع بعد ذلك، كشف خطورة الموقف الذي نجم عن التسليم بمثل هذه الآراء التي يصعب وصفها وتصنيفها.

"فليس يكفي إذن أن يتم الانقلاب الذي أراده [نيتشه] في دنيا القيم، أن يهدر دم الله، بل لابد أيضا في الوقت نفسه، أن تُنكر كل القيم، التي توصف بأنها قيم عليا وتنكر مجموعة التكاليف التي وضعها الإنسان أمام نفسه؛ ليس فقط ابتداء من المسيح بل ابتداء من سقراط ليأتمر بأمرها".[74]

ويقف على رأس منظومة القيم، الإيمان بالله، والذي إنكاره أو القول بموته يعني في الحقيقة موت الإنسان.

---

[72]- Ibid, P 10

[73]- جارودي، **نظرات حول الإنسان**، ترجمة يحي هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1983، ص 291

[74]- جارودي، المرجع نفسه، ص 291

لكن واقع الحال، أثبت أن الإنسان بحاجة إلى إنسانيته، إلى قيمه، إلى إيمانه بالله. حاجات الإنسان عجزت عن تلبيتها الفلسفات المتعددة التي حاولت أن تكون بديلا عن الدّين، والعجز نفسه عرفه العلم، الذي توّهم أنصاره أنه يُلبي كل الحاجات والرغبات، ويأتي القرن العشرين، بحربين عالميتين، ويلف الدمار العالم الحديث الذي أسس على عقيدة التقدم، ويجد الإنسان نفسه أنه لا يتطور، بل هو صوب التخلف يسير، نحو قتل نفسه، وقتل الإنسانية جمعاء.

وهنا وقف العقل المتأمل يُعيد النظر، في إنجازاته، في قيمه، لإيجاد الحل في محاولة للخروج من الأزمة الدينية، ومن المتاهة التي يتخبط فيها، وفعلا هذا العقل المتأمل أعاد النظر في مسائل كثيرة.

من جهة، رجال الدّين أدركوا جيدا أنه لا داعي للدفاع عن العقائد التي بات الوعي الأوربي يرفضها: التثليث والتجسد والصلب... والأجدر الاتجاه إلى روح الدّين إلى القيم السمحة له التي يمكن أن تخرج الإنسان الأوربي والغربي عموماً من المصير المتشائم الذي بشرت به فلسفات: نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، واللامعقول واللاشعور قبل ذلك وكل أدوات نفي الإنسان. والفلسفات المسيحية والمؤمنة تعد من بين المحاولات التي سعت ولا زالت تسعى لتحسين وضع الدين والإيمان بالله.

أ- تطور الفلسفات المسيحية المعاصرة:

في منتصف القرن العشرين، عاد الاهتمام بالدّين في الغرب، وإن لم يكن دائماً في صورة الدّين المرتبط بالوحي التقليدي، ولكن بطرح فلسفي يستلهم من الدّين جوهره وقيمه، وفي هذا السياق استلهمت الفلسفة المسيحية المعاصرة الكثير من هذه الفلسفات المؤمنة، وأكثر من ذلك انصبت على دراسة نماذج الفلسفة الملحدة لتعثر على الخلل الكامن فيها أو على الأصح، في ذهن أصحابها، وهنا "يكمن التحول الفلسفي الذي شهده المفكر الكاثوليكي...لقد حاول الأب "دولباك" أن يقف في أعمال فيورباخ وأوجست كونت ونتشه، على الموضع الذي يحس فيه بأن فكر الفيلسوف الملحد غير ملتئم، أو أنه يطلب المدد من شيء آخر".[75]

هذه المحاولات النقدية تبقى مشروعة وهادفة مادامت تنم عن روح علمية، تحاول الوقوف على أبعاد المشكلة بدراسة الذات والآخر معاً؛ فمن الإيجابي عدم تجاهل الملحد، ثم لماذا هو يختار الإلحاد أصلاً؟

[75]- المرجع نفسه، ص 165

إن الفلسفة المسيحية، سواء كانت كاثوليكية أم بروتستانتية، شهدت حقيقة تطوراً وتحولاً، بهدف إنقاذ المسيحية من جهة، وإنقاذ الإنسان الغربي من جهة ثانية بإعادة خلق التوازن الذي يفتقده، وقبل ذلك بالإجابة على الأسئلة التي طرحتها وتطرحها الساحة الفكرية المعاصرة.

وتحتم على أنصار الدّين، أن يكونوا في مستوى تحمل هذه المسؤولية الصعبة من ذلك المذهب الكاثوليكي العريق، وجد نفسه أمام هذه التحديات، بل "وجها لوجه أمام هذه المتطلبات الجديدة، فكان من الضروري، أن يهيئ نفسه للإجابة عن مشاكل جديدة. ولهذا، فإن ما نشاهده اليوم من حيوية في الفكر الكاثوليكي المعاصر، إنما مرّده إلى ما قدمه هذا الفكر من إجابة على هذه المتطلبات الملحة".[76]

الإجابات كانت تحاول الرد على الأسئلة التي أثارها الفكر أو الفلسفة المعاصرة، سواء كانت تنزع نحو الوضعية المنطقية، أم الماركسية، أم الوجودية، أم العلمانية أم الحداثية أم أي مذهب يُنكر الدّين والميتافيزيقا على العموم. وكانت هذه فرصة لأن يسهم الفكر الذي مازال مصراً على مسيحيته، متمسكاً بإيمانه، أن يسهم في الإجابة عن مثل هذه التساؤلات الإنسانية، هذه المشاركة خدمت الفكر المسيحي والكاثوليكي خاصة، بما في ذلك مؤسسة الكنيسة التي أصبحت منفتحة على العالم والمجتمع، بعد أن عرفت غياباً وحصاراً بسبب تزمتها وتعنتها تجاه قضايا العالم الحديث.

إذن الانفتاح الحاصل في الفكر المسيحي، عاد بالنفع عليه بالدرجة الأولى، لهذا نجد السلطات الدينية في الغرب تسعى جاهدة لخلق قنوات الاتصال والحوار سواء في مجتمعاتها الداخلية، أو الدخول في حوار مع الآخر أين كان مذهبه أو دينه.

ثم إن الفلسفة المسيحية تجاوزت فعلاً الطروحات التقليدية، بل لم تعد تدافع عنها، كذلك الحوار الفلسفي الجاري في قلب ومع الفكر الكاثوليكي "لم يعد يتخذ موضوعه بالضرورة، حول مسّلمات العقيدة المسيحية، وقواعد النظام الكنسي... بل يتخذ وجوده من الواقع الدرامي للإنسان".[77]

وفعلا تغيرت اهتمامات اللاهوت المسيحي واتسعت نحو منحى جديد بعد الحرب العالمية الثانية، منحى يهتم بالإنسان قبل أي شيء آخر، بعد هذه الحرب يلاحظ "أن لاهوتاً جديداً أخذ يولد ويتطور، وهو لا يتصدى

[76]- جارودي، **نظرات حول الإنسان**، ص 16
[77]- المرجع نفسه، ص 24

فقط لمشكلات الإنسان الفردي خلافا للتيارات الوجودية القديمة، بل لمشكلات الممارسة الأخلاقية والسياسية وتحوّل المجتمع".[78]

وهذا تعامل ذكي مع الوضع، أو كما قال جارودي:

"نحن نعيش، ما يدعوه علماء اللاهوت "الفرصة المناسبة"؛ أي لحظة تاريخية، من الأزمة، ومن طرح الأسئلة، ومن اتخاذ القرار الذي لا مفر منه".[79]

والذي يُفهم من هذا، الاستفادة من النقد الديني لصالح المسيحية والإيمان بالله عموماً؛ فالنقد كشف عيوب سلوك رجال الدّين، خاصة مصادرتهم للحريات التي كبحت المواهب والطاقات، وبالتالي جرّدت الإنسان من كرامته، فكان رد الفعل عنيفا ضد رجال الدّين، وضد الدّين، لكن مهما كان رد الفعل هذا عنيفاً ومتطرفاً وظالما أيضا، فعلى المسؤولين الدينيين تقبل ذلك، لأن هذا التقبل "هو التعبير القوي للمسؤولية التي تتحملها المسيحية تجاه الجنون الإيديولوجي الحديث، وبذلك تكون عرضة لهذا الاتهام، هناك اختلاف أكيد إذا اعتبرنا أن المسيحية سمحت بالظروف التي أدت إلى هذه التشوهات، أو ننظر للأمور بوجه آخر، حين نعتبر أن تلك الاتجاهات المشوهة كانت موجودة أصلا في العهد الجديد من الإنجيل نفسه".[80]

وفي الحقيقة كان من المستحيل الوقوف على مثل هذه التقريرات الخطيرة، لولا دراسة نقدية جادة للكتاب المقدس، دراسة تكفلت بها تخصصات عديدة وبمناهج مختلفة، قادت إلى نتائج متقاربة، تقر بالتحريف والزيادة والنقصان والتشويه، وبتحميل المسيحية الأصلية، معاني وعقائد لا علاقة لها بها، بسبب سيطرة رجال اللاهوت والكنيسة وتدخل السلطة السياسية للفصل في أمور العقيدة.

هذا ما توصل إليه الكثير من المفكرين والفلاسفة الناقدين للديانة المسيحية أو الكتاب المقدس، وفي المقابل، نجد فئة مازالت متمسكة بدينها المسيحي تحاول تقديم حل ليس ببعيد عن الموروث الثقافي المسيحي، خاصة بعد فشل المذاهب الفكرية ومختلف الأيديولوجيات في تقديم حل، أو أن تكون بديلاً يغني عن الدّين والإيمان، كما ادعت وتخيلت أنه بإمكانها ذلك.

يقول وولش: "هذه هي المشاكل التي نواجهها اليوم ولا يمكن أن نتجاهلها إن إعادة اكتشاف حقيقة الفلسفة المسيحية المختبئة في نظام الوجود البشري داخل المجتمع والتاريخ، أصبحت من الضروريات الملحة، بعد أن

---

[78]- جارودي، **نحو حرب دينية؟ جدل العصر**: مقدمة ليوناردو بوف، ترجمة صباح الجهيّم، دار الفارابيANEP، الجزائر، ط3، 2001، ص 154

[79]- المرجع نفسه، ص 25

[80]- ديفيد وولش، **عصر ما بعد الإيديولوجيا**، ص 181

صارعت وانتصرت على نقيضتها المعكوسة، تستطيع الآن تستعيد الأساس القانوني للنظام، إذا كان الحل الموجود فعلا والذي كنا نتبعه رمزا".[81]

خاتمة:

ككل بحث، يحاول الخروج بجملة من النتائج، فإنه ومن خلال التعرض لجدل الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة للكتاب المقدس المسيحية، من خلال أهم النقاد المؤسسين من مفكرين وفلاسفة ورجال دين، فإنه يمكن ذكر بعض النتائج:

- عملية النقد، أعادت الاعتبار للدّين، كموضوع دراسة وبحث، له مكانته المستحقة في سلم المعارف الإنسانية، كما له ضرورته التي لا استغناء عنها، كمصدر للقيم والمعرفة، إلى جانب المصادر الأخرى.

- كذلك يعد القرن السابع عشر، قرن تأسيس النقد التاريخي للكتاب المقدّس في الغرب المسيحي النقد الذي شخص الأزمة الدينية من خلال أعمال أولى لريتشارد ديسمون وجون اوستريك وسبينوزا، أعمال أثبتت التحريف الحاصل في العقائد المسيحية، والذي أدى إلى تشويه رسالة الأنبياء العقائد الموحى بها، هذا النقد حاول بالموازاة إثبات ما صح من هذه العقائد بدلالة الشواهد التاريخية والدراسات المقارنة.

- كان عصر الأنوار الأكثر جدلاً، والذي شهد زوال سلطان الكنيسة، وانتشار موجة الإلحاد، عقب الثورة الفرنسية.

- لكن رغم علمانية الغرب وإلحاده، إلا أن الواقع يشهد اهتماماً بالدّين، تعكسه الدراسات العديدة التي انصبت على دراسة الدّين عموماً، كعقيدة وطقوس وقيم ومعرفة وفلسفة وغير ها من أبعاد الدّين.

- هذا النوع من الدراسات الدينية الجارية في الغرب، فتح آفاقاً أوسع لفهم الإنسان، وفهم البنى الاجتماعية بأبعادها الأخلاقية والمعرفية والسياسية، بالوقوف على أثر الدّين في توجيه وتفعيل هذه البنى إيجاباً وسلباً، بعيداً عن الطروحات الوضعية والمادية التي تبنت نظرة محدودة وضيقة في فهم الإنسان، بإقصائها للبعد الديني والإيماني والميتافيزيقي.

- نفس التطور الإيجابي شهدته الفلسفة المعاصرة في بعض اتجاهاتها خاصة الفلسفة المسيحية، والتي قدمت نماذج أكثر فعالية وتجاوبا مع روح العصر، ومع متطلبات الإنسان المؤمن وانشغالاته اليومية، لتعزز

[81]- المرجع نفسه، ص 239

إيمانها ودورها في النهوض بأعباء الدّين المسيحي، حتّى وإن تطّلب الأمر التسليم بالكثير من نتائج النقد الذّي سلّط على الكتاب المقدس كوقوع التحريف ووجود الأخطاء.

- إن الاعتراف بنتائج النقد، لا يعني بالضرورة نسف الإيمان أو التخلي عنه، وإنما العودة إليه بطرق جديدة أكثر حيوية، واستجابة لاهتمامات الإنسان. هذا التطور يكشف أن المجتمعات الغربية، رغم اعتمادها العلمانية وتبنّيها الحداثة، إلاّ أن الفعل الديني مازال حاضراً، والمقدّس لم يغب تماماً كما اعتقد البعض وبالتالي دراسة هذا الفعل خاصة في تجاذبه أو عدمه، وفي تأثيره إيجاباً وسلباً على المجتمعات المتدينة الأخرى، كمجتمعاتنا الإسلامية يشكل ضرورة ملحة.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com